الفصل الثالث

علاقة الانتماء بالعمران البشري، والتحضر الإنساني

عبد الله ابراهيم زيد الكيلاني[1]

رولا محمود الحيت[2]

مقدمة

يقوم فقه العمران على مرتكزات يُعدّ الأخذ بها سبيلاً للنهوض واجتناباً لأسباب الانتكاس والخلود إلى الأرض. والدارسُ لأسباب نهضة الأمم يجد أن تغييرَ ما بقومٍ من حالة سلبية إلى حالة إيجابية يستدعي توفر مجموعة عناصر؛ منها إرادة التغيير، ويصنعها الفكر والإيمان والانتماء، ومنها القدرة المادية والتمكين. وقد نبَّه القرآن الكريم إلى أهمية اجتماع الإرادة والقدرة معاً لتحقق التغيير في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 93]. وتعرض الآية الكريمة لأحد المشكلات التي واجهت الرسول ﷺ في النهضة بالأمة؛ إذ كانت هناك مجموعة تملك الإرادة وتفقد القدرة، ووصف القرآن حالهم بأنهم: ﴿إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: 92] وبالمقابل فقد كان هناك من يملك القدرة، ويفقد الإرادة، وهم الذين نصَّ القرآن بأنَّ عليهم المسؤولية، ومن هنا ندرك أنَّ الجمع بين القدرة والإرادة أحد شروط النهضة والتغيير.

(1) أستاذ الفقه وأصوله في الجامعة الأردنية كلية الشريعة، a.kelane@yahoo.com

(2) أستاذ الفقه وأصوله المساعد في جامعة الإسراء كلية الآداب والدراسات الإسلامية، rolaheet@hotmail.com

ولا يخفى عند التأمل أنّ الانتماء يحقق للفرد القدرة والإرادة معاً؛ إذ يوفر الانتماء مقدرة على مواجهة أعباء يعجز المرء عن مواجهتها منفرداً، ومن صورها القديمة مشاركة العاقلة بدية القتل الخطأ، ومن صورها الحديثة صناديق الادخار التعاونية والدوارة، وصناديق الاستثمار وغيرها. وكذلك الانتماء إلى المؤسسات الاجتماعية الدينية والمهنية، كالنقابات، والاتحادات الطلابية، والمؤسسات الثقافية، التي تقوم بدور فكري ثقافي من شأنه أن يرتقي بإرادة الفرد، ويبني لديه الطاقة الإيجابية للعطاء والمشاركة بالواجبات.

ولعلَّ ما يتوفر لأمتنا من قدرات مادية وثروات مستكنة في باطن الأرض، فضلاً عن القدرة الشبابية الهائلة للأمة، مع ما تمتلكه من تشريع سماوي معصوم، يحثنا على البحث العلمي المحايد والموضوعي لمعرفة النواقص التي تعوق دون انطلاق مسيرة النهضة والعمران للأمة في سائر المجالات، ومنها المجال المعرفي، ومجال السياسة، وحقوق الإنسان.

وتدلُّ وقائع السنة النبوية على أنَّ حوار الصحابة كان يتناول –فيما يتناوله– فقه العمران وأسباب النهضة، والكثرة والقلة للأمم، كما في حوار المستورد القرشي مع عمرو بن العاص؛ إذ يحدِّث المستورد فيقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعاً: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ."[1] وفي الحديث بيانٌ لأهمية الانتماء ومؤسسات الرقابة والعدالة الاجتماعية والسياسية في نهضة الأمم.

ومن جانب آخر تكشف الدراسات الاقتصادية أن سعة العمران متصلة بالقدرة على المنافسة الاقتصادية فتشير الدراسات إلى أن عَتَبة الجدوى، وهي الحد الأدنى من مستهلكي السلعة ليكون المشروع منتجًا للمشاريع الاقتصادية الكبرى يقدر

(1) النيسابوري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء التراث العربي، كتاب الفتن، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس. حديث رقم 2898 ، ص1161.

بـ 150 مليون مستهلك للسلعة، وهو يقارب نصف العالم العربي. ومن هنا نشعر بأهمية التكتلات الكبرى للقدرة على تحقيق النهضة، وأن لا تقتصر مشاركتنا على الاستهلاك بل يكون لنا مشاركة بالإبداع والإسهام والريادة.[1]

أولاً: الصلة بين الانتماء والعمران

1 – مفهوم الانتماء

الانتماء لغة: هُوية وانتساب، وقد يعبر عنه باللُحمة والولاء. والأصل في الإنسان انتماؤه لأسرة من أم وأب، حيث المحضن الطبيعي للإنسان، ثم تنشأ ولاءات وانتماءات على أسس أوسع من الرباط الأسري، لتلبية حاجات أرقى، كالانتماء للمؤسسات الاجتماعية، من نقابات واتحادات طلابية، أو الانتماء للمؤسسات السياسية كالدولة. وتتكون الانتماءات على أساسين: أولهما لا إرادي وهي الانتماءات الفطرية التقليدية، ومن ذلك: الانتماء لمكان الولادة، والانتماء على أساس رابطة قومية، باعتبار وحدة اللغة. أما الأساس الثاني فهو أساس إرادي اختياري، كالولاء على أساس فكرة جامعة، كالانتماء للأمة الإسلامية، أو الولاء المبني على تحالف وتعاقد. وقد عرفه التاريخ الإسلامي، وأقره المذهب الحنفي، والليث بن سعد، سبباً للتوارث، والاشتراك في العاقلة، فيما يعرف بعقد الموالاة، وهو عقد رضائي ينشأ بين الرجل يدخل في الإسلام ومن أسلم على يده، وعقد معه عقد موالاة على أن يرث منه ويعقل عنه.[2] وهو عقد شبيه على نحو ما نجده في مؤسسات المجتمع التطوعي والأهلي، والمؤسسات المجتمعية الحديثة، من جهة أنه يملأ الفراغ ما بين الأسرة ومؤسسات الدولة، ويقدم خدمات لأفراده قد تعجز عنها الأسرة، من غير حاجة للجوء إلى السلطة السياسية.

---

(1) الفيلالي، مصطفى. مجالات الوحدة الإسلامية، **مجلة مجمع الفقه الإسلامي الدولي**، جدة، 1988، عدد 4، .ج3، ص8283.

(2) الزيلعي، فخر الدين عثمان بن علي. **تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق**، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1313هـ، ج5، ص179.

ومن شأن قوة هذه المؤسسات في تلبيتها لمصالح أفرادها أن تحملهم على الولاء إليها، ببذل جهدهم لخدمتها، والعمل على تطويرها، لما يتحقق لهم من مصالح بالانتماء إليها، وفي حال ضعف هذه المؤسسات الاجتماعية، فإن الناس يلجأون فطرةً إلى المؤسسات التقليدية التي أَلِفوها كالأسرة والعشيرة، أو المؤسسات الملِّية والمذهبية والطائفية، ويعجزون عن القيام بالمصالح التي تحتاج إلى جهود لا تكفي لها الولاءات التقليدية.

وتُعد هذه الانتماءات الناشئة امتداداً لفكرة لُحمة النسب، وهذا ما نبه إليه الحديث: "الولاء لحمة كلحمة النسب"[1]؛ أي إنَّه يجعل الناس يتعاطفون ويتآلفون كما هو الانتماء الفطري لمن يجمعهم نسب واحد؛ إذ من شأن الانتماء الأسري أن يحمل أفراده على التناصر الفطري. ويمكن القول إنَّ وظيفة الانتماء للمؤسسات غير الأسرية توسيع مفهوم النصرة والتعاطف الفطري، لتشمل أفرادًا أكثر لا يدخلون في رابطة الأسرة، بما يتسع لمجالات أرحب من التعاون والانتماء، كما بيّنا، له صورٌ منها: انتماء الإنسان إلى أسرة، وهو الأساس الطبيعي لنشأة الإنسان.

ويورث الانتماء الأسري عادةً ميلاً فطرياً لنصرة القريب لقريبه، وتُعد هذه النصرة بحسب الماوردي وابن خلدون الأساس لتكوّن المجتمعات الإنسانية؛ إذ يتحقق به حماية للإنسان من مخاوف، ويلبي له حاجات كالأمن والتقدير. وفي هذا المعنى يقول الماوردي: "الإِنْسَانُ مَطْبُوعٌ عَلَى الِافْتِقَارِ إِلَى جِنْسِهِ، وَاسْتِعَانَتُهُ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لِطَبْعِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28].يَعْنِي عَنْ الصَّبْرِ عَمَّا هُوَ إِلَيْهِ مُفْتَقِرٌ وَاحْتِمَالِ مَا هُوَ عَنْهُ عَاجِزٌ."[2]

---

(1) ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري. **خلاصة البدر المُنير**، الرياض: مكتبة الرشد، 1410هـ، حديث رقم 2965، ج2، ص456 رواه ابن حبان، وابن خزيمة، والحاكم والبيهقي من رواية ابن عمر، قال الحاكم: صحيح الإسناد وخالف البيهقي فأعله وقال: أوجهه كلها ضعيفة إلا حديث عبد الله بن أبي أوفى فإن إسناده كل رجاله ثقات لم يعثر عليه البيهقي ولا أحد من مصنفي الأحكام، أخرجه ابن جرير الطبري في التهذيب.

(2) الماوردي، علي بن محمد بن حبيب. **أدب الدنيا والدين** ، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1986م، ص129.

فكان لا بد من الاجتماع، ليتمكن الفرد بتعاونه مع أخيه وقريبه من سد عوز، والقيام بأعباء تحتاج إلى جهد جماعي؛ لِأَنَّ ذَا الْحَاجَةِ وصُولٌ، وَالْمُحْتَاجَ إِلَيْهِ مَوْصُولٌ.[1] أي إن ذا الحاجة تدفعه حاجته إلى صلة من يلبي له حاجاته، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 119-118]، بمعنى أنّ الناس مختلفون في الحاجات، وكلٌّ يبحث عن حاجته عند غيره، فيتم الاجتماع أولاً على أساس أسري، كما في المجتمعات البدائية؛ لأن قرابة النسب تحمل أصحابها على التناصر والألفة فطرةً، ثم تقوم تجمعات أكبر على أسس أوسع من رابطة الدم كالانتماء للإقليم، أو الانتماء للدين، الذي يقوم مقام النسب في تحريك تعاطف فطري للنصرة والتضامن ورفض الضيم على أفراد جنسه. ثم تحدث تحالفات بين التجمعات، كالمنظمات الدولية والإقليمية.

وتزداد قوة العمران بحسب قدرة كل جماعة على استيعاب عدد أكثر من الناس من أعراق متنوعة، وأقاليم شتى، وملل متنوعة، وجمعهم على رابط يوحدهم كوعاء تلتقي فيه الشعوب والقبائل على أساس يرتقي فوق المستوى الإقليمي، والمستوى العرقي، والمستوى المذهبي والملّي، بحيث تصبح هذه الروابط رحماً جديدة ينتمي إليها الناس، وتكون مولّداً للإبداع والابتكار. ويتحقق بهذا الرابط الجديد "أُلْفَة جَامِعَةٌ تَنْعَطِفُ الْقُلُوبُ عَلَيْهَا وَيَنْدَفِعُ الْمَكْرُوهُ بِهَا"، وهو المعبَّر عنه بالأمة.[2]

فهو يطلق على مجموعة من الناس تقوم بينهم روح الترابط والاتحاد، وتجمعهم الرغبة في العيش المشترك، نتيجة لتضافر عدد من العوامل واجتماعها، كاللغة المشتركة، والدين، والتاريخ المشترك، والمصالح الاقتصادية، والعرف، والإقليم، وما يتفرع عن تلاقي هذه العوامل من وحدة المشاعر والآلام المشتركة، والسلوك، والمواقف الكبرى. فالجماعة تكون أمة حين تتوحد مواقفها الكبرى، وأهدافها الإنسانية الجوهرية.

(1) الماوردي، **أدب الدنيا والدين للماوردي**، مرجع سابق، ص131.

(2) المرجع السابق، ص146.

وإذا أردنا استخدام لغة الفقهاء والأصوليين نقول: إن هذا (المعنى) من الرغبة في العيش المشترك، وصفٌ غير ظاهر، وهو أشبه بالحكمة في مقابل العلّة، وأما الوصف الظاهر فقد يكون وحدة اللغة، أو التاريخ، أو الدين، إلى آخر تلك الأسباب المشار إليها، بحيث إننا إذا رأينا جماعة متحدة اللغة، والتاريخ، والعقيدة، افترضنا وحدة المواقف.

والدارس لسيرة الرسول ﷺ يظهر له كيف وظّف التجمعات الفطرية أدواتٍ في رحم الأمة، فمن لم يكن له عشيرة ضمَّه إلى عشيرة لتعقل معه كما جاء في الوثيقة التي عقدها الرسول مع أهل المدينة: إن المؤمنين لا يتركون مفرّجاً في فداء.[1] كما وظّف علاقة المصاهرة مع قوم أُمِّنا هاجر لتكون أداة لاستيعاب قومها في رحم الأمة، وعدّ الرسول ﷺ الولاء لحمة كلحمة النسب.[2] كما جعل حليف القوم منهم،[3] ليفتح الباب لتلاقي الشعوب، فلا تكون التكتلات الفطرية والهويات البدائية عائقًا أمام اللقاء الإنساني. وذكر بعض الفقهاء من أسباب الولاء أن يسلم إنسان على يد آخر فيثبت الولاء بين الطرفين، كما ذكروا سببا آخر للولاء يقوم على علاقة تعاقدية بين طرفين.[4]

وبحسب المعايير الإسلامية فإنَّ ما يتمايز به البشر من انتماءات نسبية كالانتماء للعشيرة أو الانتماء للغة لا تنشئ فارقاً معتبراً للتفاضل عند الله تعالى، ولا تُعدُّ سببًا مسوغاً لأخذ حقوق إضافية أمام التشريع والقضاء. ومن هنا يرفض

(1) ابن سلام، القاسم. **الأموال**، تحقيق: محمد هراس، بيروت: دار الفكر، 1988، ص264.

(2) ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد. **صحيح ابن حبان** بترتيب علاء الدين ابن بلبان، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: الشيخ شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1993م، كتاب البيوع، باب البيع المنهي عنه، ذكر العلة التي من أجلها نهي عن بيع الولاء وعن هبته، ح4950، ج11، ص325.

(3) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **رسائل الجاحظ**، ص2 نسخة الكترونية على موقع www.alwrraq.com

(4) انظر: ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف. **شرح ابن بطال لصحيح البخاري**، الرياض: مكتبة الرشد، 2002م، ج 8، ص374.

الإسلام التمييز العنصري، والتمييز الطبقي، وينبذ التفاخر على أساس عرقي أو جغرافي، لأن مكانة الإنسان بما قدَّم، وبهذا تتهيأ البيئة المناسبة لتلاحم الشعوب والقبائل في رباط أوسع، وهو الأمة.

ويرى الفارابي، وهو من علماء القرن الرابع الهجري، (العاشر الميلادي) أنّ سعادة الإنسان إنما تكون بالاجتماع في مدينة فاضلة، وكلما زاد عددُ المجتمعين زاد حصول السعادة، شريطة تعاون أفراد هذا الاجتماع على عمل الخير، وإن أكمل اجتماع إنساني هو ذاك الذي يجمع كل أمم الأرض.[1] وقد اقتبس هذه الفكرة أمين عام الأمم المتحدة السابق بطرس غالي في خطبة له أمام الأمم المتحدة في الثالث من كانون الأول عام 1991 جاء فيها "إن أعظم الأحلام هو الحلم برابطة الأمم الفاضلة.[2]

وبالمقابل تضعف قوة الجماعة حين تتنافس الجماعات على السيطرة، وتتحول الولاءات إلى عصبية مذمومة، ومحاولة سيطرة كل فئة على الأخرى.

ومما يجدر الالتفات إليه أنَّ عوامل التنافس السلبي موجودة في داخل عوامل التآلف، فمع أنَّ الدِّين والنَّسب من عوامل الألفة، فإنهما قد يتحولان إلى أسباب تخاصم ضار بالعمران، لأن أفراد الأسرة الواحدة والجماعة الواحدة يرون أنفسهم متساوين في سبب الاستحقاق فيثير تميُّز أحدِهم حسدَهم.

ومن هنا ينبغي رعاية الرحم بالصلة.[3] ولعلَّ من عوامل حفظ الألفة والانتماء داخل الأسرة الواحدة معرفة كل فرد فيها بحقوقه وواجباته، ومن هنا جاءت أحكام الأسرة المتعلقة بالميراث مبينة جلية حتى لا تكون سبباً للتخاصم والتنافس المؤذن بزوال المودَّة داخل الأسرة الواحدة. وكذا الحال بالنسبة للانتماءات المتنوعة

---

(1) عفاق، قادة. دلالة المدينة الفاضلة، تاريخ 2004/4/8 www.awa_dom.org، Mostakbliat.com بتاريخ 8/4/200

(2) http://alsarab.coolbb.net/t612-topic

(3) الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، مرجع سابق، ص152.

داخل الأمة ينبغي رعايتها بعدة عوامل، منها: وضوح التشريعات وعدالتها، بحيث لا تعتدي فئة على فئة. وينبغي حفظ أسباب الانتماء داخل الجماعة بمحفزات من تأليف القلوب، وتوفير الحاجيات المادية والمعنوية داخل الجماعة التي ينتمون إليها، واجتناب مفسدات الانتماء.

فاختلاف أصحاب الأديان والمذاهب قد يؤدي إلى التنازع، وبخاصّة إذا اجتمع معه تكافؤ فيُسْتَفَزُّ في النفس تَحَاسُدُ الْأَكْفَاءِ، وَتَنَافُسُ النُّظَرَاءِ، وهنا تأتي أهمية مؤسسات المجتمع المدني، التي تضمن إدارة الصراع على نحو سلمي، ودور المؤسسات التربوية التي تهذب النزعات التنافسية، وتحولها إلى أدوات لاستباق الخيرات والنهوض بالعمران، مستلهمين قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المائدة: 48].

الانتماء إلى أسرة أو إلى جماعة هو حاجةٌ أساسية للإنسان بحسب سُلَّم حاجات الإنسان وَفْقاً لمدرسة علم النفس الإنساني،[1] وإشباع الحاجة للانتماء بمثابة أساس لكثير من الحاجات، كالاحترام والتقدير، وعليهما ينبني الإنجاز؛ بمعنى أن إشباع الحاجة للانتماء لدى الفرد يولد شعوره بالحاجة للاحترام، ويدفعه لتجنب المخالفات احتراماً لذاته.

وما قرره علماء النفس من الصلة بين الاحترام والإنجاز مبني على الملاحظة والخبرة، ونجد له عددًا من الشواهد، من ذلك قول عنترة:

ولقَدْ شَفَى نَفْسِي وأَبْرَأ سُقْمَها قِيلُ الفَوارِسِ: وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ

فهو يعبر عن أثر الاحترام والتقدير في شفاء نفسه. مما تعانيه من احتقار، وكيف أدى اعتراف العشيرة بنَسَبِهِ إلى تولُّد الدافعية للإنجاز لديه. ولعلَّ

(1) العميان، محمود سلمان. **السلوك التنظيمي في منظمات الأعمال**، عمان: دار وائل للنشر، 2005، ص 282 – 285. انظر:

– هرم إبراهام ماسلو لحاجات الإنسان http://webspace.ship.edu/cgboer/maslow.html

دراسة سيرة المستضعفين من أصحاب رسول الله ﷺ كالمقداد بن الأسود تكشف أثر الاحترام والتقدير في نمو شخصية الإنسان، فهذا الصحابي الذي وقف في بدر يخاطب رسول الله ﷺ: امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به.[1] والمقداد كان من المستضعفين في مكة، لم تذكر له كتب السيرة مواقف مشهودة في مكة، إلا أنَّ ما وفَّره له الإسلام من انتماء للجماعة، واحترام وتقدير، أوجد منه الفارس الذي يعلن عن استعداده للبذل والجهاد في بدر.

ولعلَّ من الأحكام الفقهية التي تكشف عن قيمة الانتماء، وأثره في النمو السليم للإنسان قول الحنفية في تعليل تحريم الزنا ولو كان الرجل مكرها: "لَوْ أُكْرِهَ على الزِّنَا لَا يُرَخَّصُ لَهُ؛ لِأَنَّ فِيهِ قَتْلَ النَّفْسِ بِالضَّيَاعِ؛ لِأَنَّهُ يَجِيءُ مِنْهُ وَلَدٌ لَيْسَ لَهُ أَبٌ يُرَبِّيهِ، وَلِأَنَّ فِيهِ إفْسَادَ الْفِرَاشِ..." [2]

فانعدام النسب بحسب تعليل الحنفية فيه معنى القتل، بما فيه من تعريض النفس للضياع، بسبب فقد التربية. والوقاية من هذا الضياع أحد وظائف الانتماء، ابتداء من الانتماء للأسرة وانتهاء بالانتماء للأمة. فكما أنَّ الفرد الذي لا يجد أسرةً تبني القيم، وتعزز الانتماء، معرَّضٌ للضياع أمام أنواع الغواية، فكذا المجتمعات التي تتعرض للمثاقفة -قبل اكتمال النموذج المعرفي- معرضة للاستلاب الحضاري، والتأثُّر المشوَّهِ بالأفكار الوافدة، فانتشار الإسرائيليات في بعض كتب التراث، وبخاصّة ما يتعلق بقصص الأنبياء، وانتشارَ المفاهيمِ

(1) ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي. **البداية والنهاية في التاريخ**، القاهرة: دار إحياء التراث العربي، 1988، ج1، ص324.

(2) الزيلعي، **تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق**، مرجع سابق، ج5، ص186.

الخاطئة بين العوام،[1] هي من مظاهر التثاقف والتأثر بالأفكار الوافدة، قبل اكتمال بناء مرجعية قيمية لدى أفراد الجماعة، ذلك أنّ من أهم ما يساعد على نجاح الحوار مع الآخر أو ما نسميه بالمثاقفة أمران: أولهما: الاطمئنان إلى الهوية الثقافية المسلمة المستقلة، والواثقة بنفسها، والمؤمنة بغاياتها. وثانيهما: الموقف الحيادي النزيه من الموضوع المتعامل معه، من غير استكبار يرفض الآخر، إيماناً باحترام الثقافات المغايرة والاقتراب منها بعدالة وتسامح. فالاستيراد الثقافي واستيراد التشريعات هو من مظاهر الانبهار بالآخر، وولع المغلوب بمن غلبه، وهو أمر مخِلٌ بالانتماء، ومن ثم بأسس العمران.

وللانتماء الحقيقي صور متعددة، منها: انتماء التشريعات إلى قيم الأمة؛ إذ إنَّ تعديل القوانين الوطنية لتنسجم مع المواثيق الدولية من غير مراعاة لمصالحنا الخاصة، ومن غير عرضها على البرلمانات للنظر في مدى انسجامها مع الدستور ومع قيم الأمة يخلُّ بفقه العمران. فالمواثيق الدولية ليست ممثلة للخير المطلق، وينبغي التعامل معها بعين ناقدة، فهي تمثل مصالح البيئة التي نبتت فيها، واعتمادها في بلادنا من غير التفات لخصوصيتنا الثقافية سيؤدي إلى صدام، أو تنافر، كما في موضوع الحريات مثلاً، فيندرج في مفهوم الحرية بحسب الرؤية الغربية ما هو مقبول، وما هو غير مقبول، فحرية الشواذ في المفهوم الغربي مثلاً هو من الحرية، وفي المفهوم الإسلامي هو انحراف عن الفطرة.

---

(1) موضوع التلبس بالجن مثلاً ثابت بالأناجيل بنص صريح، أما في النصوص الشرعية، فالنصوص محتملة والثابت ينص أن الشيطان ينفي قدرته في التأثير على الإرادة: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ ﴾ [إبراهيم: 22] " ومن هنا يلحظ أن ما شاع عن موضوع التلبس متأثر على نحو جلي بما عند أهل الكتاب قبل عرضه على النص القرآني على نحو دقيق. والاتكاء على النصوص المحتملة مثل : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ﴾ [البقرة: 275]، وللتوسع انظر:

– أبو حسان، جمال. العلاقة بين الإنسان والجان كما يصورها القرآن، **مجلة إسلامية المعرفة**، العدد 55، شتاء 1430هـ/2009م، ص101–136.

ثم إنّ استيراد التشريعات من غير عرضها على قيم الأمة هو مظهر من مظاهر الانبهار الثقافي بالآخر، والعشا الحضاري[1]، وهو مخل بفقه العمران، لما يؤدي إليه من تصادم من بين تشريعات غير وطنية المنبت، والقيم الأخلاقية التي ارتضاها المجتمع، فيصبح الشخص المكلف بتنفيذ القوانين في صراع داخلي مع ذاته، ولا يعود الحرص على تنفيذ القانون علامةً على الخيرية، ولا على الانتماء، بل نقيضه، وهذا خلل فادح في فقه العمران. ولذا من الخير للأمة أن تنتمي تشريعاتها إلى قيمها.

2 – مفهوم العُمران الإنساني

العُمْرَانُ اسم للبنيان، ونقيضه الخراب، وهو يطلق على البناء والتنمية المادية، كما يطلق على الإحياء الثقافي، فمن إطلاقه على التنمية المادية قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [التوبة: 19]. وقوله في حق الأمم من قبلنا: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[الروم: 9] والإعمار المقصود هنا البناء والغرس. ويطلق الإعمار على الإحياء الروحي والقيمي كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18].

والعِمارة تعني: جعْل الشيء آهلاً صالحًا للإقامة الدائمة، فعامر الأرض الآهل بالسكان، جاء في لسان العرب: "والمَعْمَرُ المنْزِلُ الواسع من جهة الماء والكلأ الذي يُقامُ به. والأرض: منها الموات، ومنها العامر، وأمَّا ما لا يبلغه الماء من موات الأرض فلا يقال له عامر.[2] ويقال للحي العظيم عِمارة لأنهم يُعمر بهم المكان، والعمرة: زيارة مكان آهل.

(1) العشا: سوء البصر يقال عشى من باب تعب؛ أي ضعف بصره فهو أعشى، لسان العرب، انظر:
– ابن منظور، محمد ابن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، (د.ت.)، ج15، ص56.
– الفيومي، أحمد بن علي المقري. **المصباح المنير**، مادة عشى، صيدا: المكتبة العصرية، 1996، ص213.

(2) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج5، ص32.

ويفهم من المعاني اللغوية للعمارة أنها قد تطلق على فعْل الإحياء وقد تطلق على الفاعلين، كالحي العظيم. وفي هذا إيماء إلى أنَّ العمارة تحتاج إلى حفظ نظام التعايش الإنساني بما يحفظ التآلف بين الخلق: "الفاعلين" ويعزز الانتماء للجماعة إلى جانب توفير أسباب البقاء المادي من ثمر وغرس: "وَمَادَّة كَافِيَةٌ تَسْكُنُ نَفْسُ الْإِنْسَانِ إِلَيْهَا وَيَسْتَقِيمُ أَوَدُهُ بِهَا."[1]

وهذا ما أومأت إليه الآية الكريمة:" ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: 37] فهوى الأفئدة للمكان يحقق الألفة، والرزق من الثمرات يوفر أسباب البقاء المادي، وبهما يتحقق العمران. وإلى جوار الألفة والمادة الكافية لا بد من ضبط الأفراد لغرائزهم الغضبية، ويعبر عن هذا بـ"النَفْس المُطِيعَةٌ إِلَى رُشْدِهَا المُنْتَهِيَةٌ عَنْ غَيِّهَا."[2]

فهذه دعائم العمران الثلاث: الألفة الجامعة، والوفرة الكافية، والنفس القانعة. فقد يفسد العمران ويحدث التصادم بين أفراد المجتمع لنقص الكفاية، ونقص فرص العمل، فترى كل فرد ينظر إلى ما ناله صاحبه وكأنه حرمه من رزقه المحتمل.

وهكذا نجد أن تحقيق العمران يحتاج إلى عمران أخلاقي ومادي معاً، ولهذا كان زوال الشرط الأخلاقي مؤذن بزوال العمران، وهذا ما نبه إليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: 6] فلتحقيق العمران نحن بحاجة إلى عمران أخلاقي.

وتحقيق العمران يقوم على دعائم منها: تخطيط يحافظ على المعمور من الأرض بما فيها من زرع وحيوان، وإصلاح ما هو قابل للإصلاح، والمحافظة

(1) الماوردي. **أدب الدنيا والدين**، مرجع سابق، ص146.

(2) المرجع السابق، ص146.

على عامرها من الإنسان، ويهيء للإبداع ويغير من نمط التفكير في انتظار الوظيفة، إلى التفكير في ابتكار فرص عمل وتوليدها. ويقوم على نظام تربوي يبني القيم، ويبني الانتماء، ويبنى الفرد على أداء واجباته مثلما يطالب بحقوقه. ولعل في حديث رسول ﷺ: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم" ما ينبه إلى أهمية هذه القيمة التربوية: فحبُّ الدنيا يعبِّر عن الحرص عن النزعة الاستهلاكية، وظهور الإنسان الذي يتجاوز حقه في الأخذ، وأما كراهية الموت فإنها تعني نسيان فكرة الحساب، وغياب روح الإيثار، والتقصير بالقيام بالواجبات. فالوهن الحضاري يتلخص ببروز الإنسان المستهلك الذي لا يهمه إلا حقه، وغياب الإنسان المنتج الذي لا يرى إلا واجبه. ولن يقوم للمجتمع عمران إلا ببناء قيمي يتجاوز هذه الحالة.[1]

والعمارة والعمران يستلزمان فتح أبواب التعاون الدولي لتلتقي الخبرات بين الأمم، ومن هنا يأتي البحث المشترك الإنساني ومحفزات الانتماء بحيث تلتقي الشعوب جميعها على الصالح العام للإنسانية كلها. والقرآن الكريم والسنة النبوية حافلان بنماذج من المشترك الإنساني كتذكير المخاطبين بأنهم: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [الإسراء:3]، وهم يمثلون صالحي قومهم، فكأن القرآن بتنبيهه لوحدة الأصل يحيي في المخاطب نزعات الخير، ويذكِّره بصالحي أجداده الذين يفترض أن يحمل أخلاقهم، كما يحمل صفاتهم الوراثية، ويذكرهم بالنفس الواحدة التي خلقوا منها ويدعوهم إلى صلة أرحامهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: 1].

وكان نزول التشريعات السماوية والقيم الأخلاقية مبينة لطرق الكسب المشروعة، بوصفها أحد أدوات العمران. وجاءت هذه التشريعات مؤسَّسة على بناء عقدي، ورؤية كلية، تحفظ العمران، وتلغي من عادات الجاهلية ما كان سبباً

(1) سفر، محمد محمود. **دراسات في البناء الحضاري (محنة المسلم مع حضارة العصر)**، تقديم عمر عبيد حسنة، الدوحة: وزارة الأوقاف القطرية، سلسة كتاب الأمة، العدد 21، رجب 1409هـ، ص 8.

لإهدار الثروات. وجاءت التشريعات التي تنظم السلوك الإنساني على المستوى المحلي والدولي، على نحو يحفظ أسباب التآنس، ويقضي على الشحناء، لأن ضيق النفوس بسبب الشحناء عائق للعمران كضيق الأرض. وعمل التشريع للقضاء على أسباب الصراع المتمثل باستعلاء أمة على أمة وهيمنتها عليها.

وفي سبيل حفظ أسباب التعايش الإنساني على نحو يتسع لاختلاف الشعوب، قرّر الإسلام مبدأ "التعاون" و"التعارف" أساساً للعلاقات الدولية والإنسانية؛ إذ خلق الله تعالى الإنسان مفتقرًا في تحقيق حاجاته إلى غيره، فلا تتم حاجات بني آدم إلا بتعاون بين بني جنسه، وكذا لا تتم مصالح دولة إلا بتعاون دولي. ومن هنا اتسع النظام السياسي في الإسلام لاختلاف الأعراق والأديان بما يحفظ مصالح الجماعة الإنسانية، ويلغي أسباب الصراع بين البشر كفكرة استعلاء جنس على جنس. وكانت العلاقات الدولية مستندة إلى مبادئ أخلاقية كوجوب الوفاء بالعهود، والبر والقسط مع الذين لم يقاتلونا في الدين، وتقييد مبدأ التعامل بالمثل بالفضيلة، واحترام الأعراف الدولية السائدة متى استقامت مع مقاصد التشريع، ونبذ العهد قبل نقضه بإشعار الدولة بالرغبة بإنهاء المعاهدة تجنبا للغدر،[1] والتوسع في مفهوم الأمان.

وصور العمران اليوم في ظل التحالفات الكبرى والمجتمعات الصناعية تشمل قدرة المجتمع أو الأمة على الإنتاج والمحافظة على وجودها الحضاري وتوظيف القيم الإسلامية للتوحيد والتحفيز والتعاون والمشاركة في الحياة المعاصرة الحديثة بحيث تدخل مفاهيم الأمن الغذائي، والاقتدار التكنولوجي، ومنعة الأوطان، والتنمية المستقلة، والمستوى الصحي، وتمتع الفرد بحقوقه وحرياته، فكل هذه

(1) أبو زهرة، محمد. **تنظيم الإسلام للمجتمع**، القاهرة: دار الفكر العربي، 1965، ص46.
- هدايات، سو رحمن. **التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم في دولة واحدة**، القاهرة: دار السلام، 2001، ص33.
- كساب، فاطمة. السيادة الدولية وأثرها على مفهوم الجهاد، رسالة دكتوراة الجامعة الأردنية، نوقشت 2007م، إشراف: عبد الله الكيلاني، وعدنان العساف، ص124.

تدخل ضمن مفهوم الإعمار بشقيه المادي والقيمي.[1] ولا ريب في أن النصوص الشرعية تساعد على هذا، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:61]. قال الجصاص: "نسبهم إلى الأرض لأنَّ أصلهم وهو آدم خلق من تراب الأرض والناس كلهم من آدم عليه السلام، وقيل إن معناه إنه خلقكم في الأرض، وقوله واستعمركم فيها يعني أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه. وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية."[2]

كقوله ﷺ: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه" وقوله ﷺ: "الخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله."[3] وقول علي بن أبي طالب لواليه: أشعر قلبك الرحمة بالخلق فإنهم صنفان، إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، وقول أبي يوسف للرشيد فأسعد الولاة والٍ سعدت به رعيته.

3 – العلاقة بين الانتماء والعمران

ويتضح مما سبق أن بين الانتماء والنماء؛ أي العمران، نسباً وصلة من وجوه عدة:

أ– العمران مرتبط بمفهوم "الشأن العام" فهو ليس حديثًا عن زيادة ثروة فرد، وإنما عن زيادة ثروة قومية أو إنسانية. والهوية الجامعة هي التي تمكِّن من وجود خطاب يجمع الشأن العام، ومن جهة أخرى فإنَّ الفرد من غير هُوية حضارية؛ أي انتماء حضاري، يفقد الدافعية لحمل ثقل مشروع حضاري ينهض بالعمران إلى أقصى مدى ممكن، بما يوفره من قدرة على مخاطبة مجموع أفراد الأمة، وجمعهم على هذا المشروع.

---

(1) الفيلالي، مصطفى. مجالات الوحدة الإسلامية، **مجلة مجمع الفقه الإسلامي**، العدد 4، ج3، 1988، ص8283.

(2) الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي (توفي 370هـ). **أحكام القرآن للجصاص**، تحقيق: محمد قمحاوي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1405هـ، ج4، ص378.

(3) الهيثمي، علي بن أبي بكر. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة: مكتبة القدسي، 1994م، برقم (13706)، ج8، ص191.

ومما يكشف عن قيمة الانتماء، في إقدار أصحاب المشاريع الحضارية على تحقيق مشروعهم، ما رواه البخاري عن "ابن مسعود يقول في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي."[1]

ووجه الشاهد في وصف هذه السور بالتلاد، وهو الكنز القديم، أن تتأمل في دلالة الكلمة، فهذه السور هي من أول ما حفظ الصحابي، ولهذا فهي من العتاق الأول، قال ابن حجر: "ومراد ابن مسعود أنهن من أول ما تعلم من القرآن، وأن لهن فضلاً لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم."[2] فهي كالكنز القديم لما كانت تولِّده في المسلمين الأوائل من شحنة إيمانية دافعة، وتمنحهم المناعة والحصانة، وهي أحد وظائف الهوية والانتماء؛ إذ تربط الإنسان المسلم بإبراهيم وموسى وعيسى وسلسلة الأنبياء، بحيث يشعر بعمق امتداده في التاريخ، لتكون هذه الشحنة التاريخية دافعة لتغيير الواقع، وصناعة المستقبل، وعمران الأرض ماديًا ومعنويًا.

وللرموز الثقافية عامة قدرة على منح الفرد طاقة هادرة. وفي هذا تفسير الانتفاضات الشعبية ضد الطغاة وتفسير الحركات الجهادية والنضالية بالرغم من التفوق المادي الهائل لخصومهم.[3]

ب- من غير هوية حضارية تُفقد القدرةُ على مواجهة عوامل الإذابة والإحباط، مما يدخل تحت مفهوم جهاد الدفع. وكان بناء الفكر العربي في أوائل القرن الماضي ومنتصفه قد أولى هذه المسألة أهمية، بسبب تعرض جزء كبير من الوطن العربي للاحتلال وخوض معارك الاستقلال، فصيغت المناهج الفكرية على إعطاء

---

(1) البخاري، الإمام محمد بن اسماعيل. (توفي 256هـ). **صحيح البخاري**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1998م، كتاب التفسير، باب سورة بني إسرائيل (الاسراء)، حديث رقم 4708، ص904.

(2) العسقلاني، ابن حجر. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، بيروت: دار المعرفة، 1379هـ، حديث (رقم 4708) ج8، ص388.

(3) الذوادي، محمود. مشروعية درس الثقافة، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد 136، ابريل 2010م، ص114.

التحرير قيمة عظمى، وبلا ريب هي كذلك. وكان للشعر العربي الأثر في الإعلاء من قيمة الجهاد في نفوس الناشئة، وربطه بالانتماء الحق للأمة، كقول الزبيري شاعر الثورة في اليمن:

ستعلم أمتنا أننا نلاقي الحتوف حنانًا بها

ولكن بعد نيل الاستقلال وجدت قضايا إلى جانب الجهاد، تحتاج اليوم إلى إدخالها في القيم التي نعلي من شأنها، من غير أن تهمل قيمة الجهاد؛ لأن الأمة اليوم تعاني نواقص ثلاث: الحرية والمعرفة والتمكين. وتحتاج الأمة اليوم كذلك لمواجهة الاستبداد، والبطالة، والجهل، وإحلال قيم الحرية المحققة للاستخلاف. فالمعرفة بإطلاقها، والتمكين للأفراد من تنظيم أنفسهم، وأخذ حقوقهم، من غير حاجة إلى الاعتماد على هويات بدائية، كل ذلك رديف لقيم الجهاد لإكمال التحرير. وهي قيم تتطلب الحاجة إدخالها في بنية الفكر العربي المعاصر على أنها من الانتماء للأمة، بحيث تصبح من الأولويات بناء القدرات الإنسانية والتوظيف الفعال لهذه القدرات، وتحرير الطاقات الكامنة للبلدان العربية والإسلامية بتعزيز الحكم الصالح. وكل ذلك مندرج في مفهوم العمران والانتماء.

فالانتماء ليس مجرد معنى عاطفي، وإنما هو عواطف تضامنية تتحول إلى سلوك عمراني. وقد جمع هذه المعاني الشاعر بقوله[1]:

الأرضُ ليس بكاءَ مغتربٍ يجلو به آلام غربته
الأرضُ ليس قميصَ مُتَّجِر يرفو به أعلام دولته
الأرضُ في الزيتونِ نزرَعُه وحدائقِ الليمون نُنْبِتُه
الأرض نجارٌ... وحِرفته بوابة التاريخ.. صَنعتُه
الأرض مسجدها وعالمها ستزلزل الطغيان خُطبتُه

(1) من شعر الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني

ولعل من الشواهد لقيمة هذا العمران الجامع ما ورد في الحديث: خرج النبي ﷺ في غزوة تبوك فطلعت ناقته، فقام عليها سريعًا، فمر به رجل، فقال له بعض أصحابه: ما رأينا كاليوم رجلاً أجلد ولا أقوى لو كان في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: "إن كان يسعى على صبية صغار فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على والديه فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه ليغنيها فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى رياء وسمعة فهو للشيطان."[1]

وبالنظر في كتب الفقه نجد أن كتب المتقدمين كالشيباني وتبعه السرخسي تحتوي على باب الكسب، ويقول السرخسي عن هذا الكتاب -كتاب الكسب- "وَفِيهِ مِنْ الْعُلُومِ مَا لَا يَسَعُ جَهْلُهَا، وَلَا التَّخَلُّفُ عَنْ عَمَلِهَا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إلَّا حَثُّ الْمُفْلِسِينَ عَلَى مُشَارَكَةِ الْمُكْتَسِبِينَ فِي الْكَسْبِ لِأَنْفُسِهِمْ وَالتَّنَاوُلُ مِنْ كَدِّ يَدِهِمْ لَكَانَ يَحِقُّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ إظْهَارُ هَذَا النَّوْعِ مِنْ الْعُلَمَاءِ."[2]

ويذكر لنا السرخسي شواهد لحث الإنسان على العمل ومقاومة البطالة منها قوله : "طَلَبُ الْحَلَالِ مثلُ مُقَارَعَةِ الْأَبْطَالِ، وَمَنْ بات عييّا من طلب الحلال بات والله عنه راض" [3] وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقَدِّمُ دَرَجَةَ الْكَسْبِ عَلَى دَرَجَةِ الْجِهَادِ، فَيَقُولُ: لَأَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ رَحلٍ -أي ما يوضع على الناقة- أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ ابْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّمَ الَّذِينَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.[المزمل: 20] وَفِي الْحَدِيثِ: "عن أنس أن النبي ﷺ لما رجع من تبوك

(1) ابن حرب، الحسين بن الحسن المروزي. **كتاب البر والصلة**، تحقيق: محمد سعيد بخاري، الرياض: دار الوطن، 1419هـ، ص162. وهو مرسل في سنده مجهول.

(2) السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة. **المبسوط**، بيروت: دار المعرفة، 1414هـ/1993، ج30، ص244.

(3) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. **شعب الإيمان**، تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1990م، حديث رقم 1232، ص86.

استقبله سعد بن معاذ الأنصاري فقال ما هذا الذي أرى بيدك؟ قال: من أثر المر والمسحاة أضرب وأنفق على عيالي، فقبَّل النبي ﷺ يده وقال: وهذه يد لا تمسها النار"[1]

وهذه المعاني مرتبطة بفقه العمران، ثم انسحب هذا الباب من كتب الفقه، وهذه مسألة تحتاج إلى معالجة عند دراسة تاريخ الفقه.

ج- من غير هوية حضارية تفقد الذاتُ المنَاعَةَ في تحصين النفس من عوامل الإفساد المصاحبة للترف، الحاصل في مرحلة اكتمال العمران، مما نبه إليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: 6] فقد يحدث العمران على يد البناة، ثم تعجز الأجيال التالية عن المحافظة على ما ورثوه لضعف الانتماء للأمة، وغياب شرط أخلاقي لاستمرار النعم. فحين يدور الإنسان بين ذاته ولذاته يكون العمران على وشك الخراب. وهذا ما نبهت إليه الآيات السابقة. ويندرج تحت معنى قوله تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: 6].

وهذا لا ينفي أن الإنسان من غير هوية حضارية قد يحقق نجاحًا شخصيًا، ويكوِّن مالاً وثروة، ولكنه لا يبني وطناً حراً إلا بهوية وانتماء. فالمدارس والجامعات مثلاً إذا لم تُعنَ في مناهجها ببناء هوية حضارية جامعة، فإنَّها قد تنشئ جيلاً قادراً على أن يكون من الموظفين المتقنين والفنيين والتكنوقراطيين الجيدين، لكنه جيل لا يحمل فكراً سياسيًا للنهوض بمستوى الحريات في الأمة، ولا يملك إدراكًا لأهمية الدفاع عن سيادة القانون. ولهذا سيكون هذا الجيل هشاً في مقاومته لنزعات التدخل الخارجي، والارتداد للهويات البدائية، والمصالح الذاتية التي تسمو على مصلحة الوطن. وهنا يبرز المعنى التاريخي الذي أراده

(1) ابن حجر، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، 1992، ج3، حديث رقم 3207، ص86.

مالك بن نبي عندما عرف الثقافة بأنها الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعاً للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه."[1]

وقصة قارون نموذج للفرد الذي استطاع أن يكوِّن ثروة، لكنه وظفها على نحو يشبع نزعاته الذاتية للتباهي والتفاخر، ولم يكن لديه انتماء لقومه، بحيث يحسن إليهم، فكان نتيجة هذا السلوك أن خسف الله به الأرض. وهذا الخسف لم يحدثنا به القرآن إلا لنعتبر بأن الغفلة عن التنافس في ثواب الآخرة مؤذن بتعجيل العقاب في الدنيا، وخراب العمران، بمرأى من الذين تمنوا أن يكونوا مثل الغافلين.[2]

د- تُعد الهُويَّة والانتماء الأساس لتتحقق بين الناس "أُلفةٌ جَامِعَةٌ تَنْعَطِفُ الْقُلُوبُ عَلَيْهَا وَيَنْدَفِعُ الْمَكْرُوهُ بِهَا".ويعدد لنا الماوردي أسباب الألفة ويقول: هي خمسة: الدين، والنسب، والمصاهرة، والمودة، والبر.[3] وتلحظ أن الرسول ﷺ يوظف هذه الأسباب في مجال العلاقات الدولية، لتكون أداة لدمج الشعوب الأخرى واستيعابها ففي الحديث: "إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا. أَوْ قَالَ ذِمَّةً وَصِهْرًا."[4] وهو هنا يشير إلى المصاهرة بسبب أمنا هاجر، وأما الذمة فبسبب السيدة مارية وما كان من مودة وبر، يستوجبان الإحسان.

وكل ذلك يؤكد الحاجة لسياسات وممارسات التماسك والتكافل والضمان الأسري والاجتماعي، بما يضمن فاعلية أدوات الألفة من دين وقرابة وغيرها،

---

(1) ابن نبي، مالك. **شروط الحضارة**، دمشق: دار الفكر، 1969م، ص129.

(2) ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، 2000م، ج 20، ص114.

(3) الماوردي. **أدب الدنيا والدين**، مرجع سابق، ص 146.

(4) النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري. **صحيح مسلم**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1998م، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، حديث رقم 2543، ص1027.

في مسارها الطبيعي، وأن لا تنحرف فتتحول إلى أدوات تحاسد وتخاصم. ولعل بناء الهوية الجامعة مع إيجاد مؤسسات المجتمع الأهلي ومؤسسات الأمة أحد هذه الأدوات لتعزيز المواطنة الصالحة.

ثانيًا :نظرة الإسلام لتنوع الروابط الاجتماعية

تتنوع الروابط الاجتماعية باعتبارات عدة: ذكر القرآن منها: الشعوب والقبائل، يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: 13]. والتقسيم إلى شعوب وقبائل يُلتفت فيه إلى العرق والإقليم، فمن انتسبوا لجد فهُم القبيلة، ويلحق بهم من تحالف معهم، أو دخل معهم بعقد ولاء، على اعتبار أن مَوْلى القوم منهم، وحليف القوم منهم. وفي مقابل القبائل تأتي الشعوب، وهم ومن انتسبوا لشعاب الأرض؛ أي للإقليم، كما ذكر القرآن: "الأعراب" وهم يأتون في مقابل الحضر. وقد تجمع الأفرادَ هُوِيَّاتٌ فرعية باعتبار المهنة، أو الملة، أو المذهب، أو المدرسة... فيقال: الشافعي، والأزهري، وهكذا.

ونلاحظ أن القرآن الكريم دعا إلى رابطة اجتماعية هي: رابطة الأمة، التي تستوعب في داخلها كل أشكال الترابط الاجتماعي التي عرفتها الإنسانية، من رباط عرقي كالقبيلة والعشيرة، أو رباط إقليمي كالشعب والقوم، لتلتقي هذه الروابط في إطار أكبر، وبحيث لا تكون هذه الروابط عوائق عن الوحدة، فالانتماء للأمة يتقدم كل انتماء آخر. ومن هنا فإنَّ التفرقة بين المهاجر وغيره، والحضري، والبدوي، تُفرِّقُ الكلمة وتُفْسِدُ النيّات وتجعل وحدة الأمة في مهب الأخطار.[1]

وتأسيساً على هذا الأصل فقد فسر الفقهاء (الأعرابية) الواردة في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ ﴾ [التوبة: 97] بأنها

(1) السيد، رضوان. **مفهوم الأمة، والجماعة، والسلطة**، فصل السلطة في الإسلام، بيروت: دار المقاصد، 1985، ص27.

سلوك مرتبط بضحالة العلم، وليس مرتبطاً بشعب أو منطقة جغرافية، فإذا تعلَّموا فقد خرجوا من الأعرابية ولو بقوا في قبائلهم.[1]

وقد حوّل الفقه الإسلامي الروابط الأخرى سوى رابطة "الأمة" إلى روابط محتواة في هذه الرابطة الكبرى. ومن ذلك إذابة البدوي وصَهْره في مفهوم الدولة والجماعة على الرغم من تصادم مفهوم (البداوة) مع مفهوم الدولة. ففي الحديث: "الهجرة هجرتان: هجرة الحاضر وهجرة البادي، فأما البادي فيجيب إذا دعي، ويطيع إذا أمر.. الخ."[2] وفي الأثر أيضاً: "هجرة الأعراب إذا ضمهم ديوانهم"؛ أي ديوان الجند.[3] فالأعرابي البادي حين يجيب إذا دعي، ويطيع إذا أمر، تتوحد مواقفه مع الحضري، وهكذا يصبحان جزءاً من أمة واحدة، دعامتها وحدة المواقف ولو اختلفت المواقع الجغرافية.

ثالثًا: حوافز الانتماء

1 – مفهوم الحوافز وأنواعها

يقصد بالحوافز المثيرات الخارجية المحركة للقوى الداخلية في الإنسان نحو عمل ما، كمنح المتبرع لمشروع خيري جائزة، أو تخليد ذكرى من حقق إنجازًا لأمته بتسمية معلم حضاري باسمه. والمحفزات قد تكون مادية كزيادة أجر، أو ترقية، أو رحلة، أو توفير قروض، أو مكافأة نهاية خدمة. وقد تكون المحفزات معنوية كمنح وسام تقدير، أو وضع اسم المبدع في لوحة شرف خاصة.

---

(1) السرخسي، أبو العباس أحمد بن الطيب. (توفي 286هـ) **شرح السير الكبير إملاء محمد بن الحسن الشيباني**، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة: معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، 1957، ج1، ص94.

(2) النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب. (توفي 303 هـ) **سنن النسائي**، شرح السيوطي، القاهرة: المكتبة التجارية، ج7، ص 144.

(3) السرخسي، **شرح السير**، مرجع سابق، جـ1، ص94.

وترى في قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: 26] استيعاباً لنوعي الحوافز. والآية الكريمة تحرك الحوافز الإيجابية، وفي المقابل تستخدم المحفزات السلبية للحث على اجتناب أمر كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ [يونس: 27]

والمحفزات منها ما يتعلق بالفرد نفسه، لحثه منفردًا على عمل ما. ويعد الثواب المترتب على ما يقوم به الفرد من صلة للأرحام وإحسان للجار أحد محفزات الانتماء على مستوى الفرد، فضلاً عن القيم الاجتماعية التي تقدر الإنسان البار بأهله والمنتمي لأمته التي تحفز الفرد وتزيد حرصه على الانتماء.

2 – نماذج من محفزات الانتماء في النصوص الشرعية والتراث الفقهي

نجد النصوص الشرعية جلية في توجيه الإنسان لطلب الرضوان، بنصرة الضعيف، ورعاية المريض، وإطعام الجائع، والشفاعة الحسنة. وفي الحديث: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عبدي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لوجدتني عِنْدَهُ."[1]

وقد كان لرعاية أفراد الجماعة لضعفائهم أثرها في تعزيز الانتماء لدى أفراد الأمة، لما يلمسونه من مودة وبر تعد من أسباب التآلف؛ إذ إنَّ علاقة القرابة تحتاج إلى رعاية بالصلة ليتحقق بها التآلف، وإلا انقلبت إلى نقيضها؛ إذ تتحول إلى عامل تحاسد، وفي هذا يقول الماوردي: "وَحَمِيَّةُ الْمُنَاسِبِينَ إنَّمَا تَدْعُو إلَى النُّصْرَةِ عَلَى الْبُعَدَاءِ وَالْأَجَانِبِ، وَهِيَ مُعَرَّضَةٌ لِحَسَدِ الْأَدَانِي وَالْأَقَارِبِ، مَوْكُولَةٌ إلَى مُنَافَسَةِ الصَّاحِبِ بِالصَّاحِبِ، فَإِنْ حُرِسَتْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّلَاطُفِ تَأَكَّدَتْ أَسْبَابُهَا وَاقْتَرَنَ بِحَمِيَّةِ النَّسَبِ مُصَافَاةُ الْمَوَدَّةِ، وَذَلِكَ أَوْكَدُ أَسْبَابِ الْأُلْفَةِ."[2]

(1) مسلم. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب كتاب البر و الصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، حديث رقم 2569، ص1037.

(2) الماوردي. **أدب الدنيا والدين**، مرجع سابق، ص152.

فتقدير المجتمع لمن يقوم بأعمال معينة كالبر والعطاء، هو من هذه المحفزات الفردية المعنوية التي تحرك همة الفرد نحو عمل ما.

من محفزات الانتماء التي عرفها الفقه الإسلامي إعطاء الزكاة للمؤلفة قلوبهم، ومنهم أقوام دخلوا الإسلام ويقيمون في بلد غير مسلمة، وهؤلاء يتعرضون بسبب إسلامهم إلى خسارة تعاطف قومهم وأبناء ملتهم السابقة، بما يستلزم تعويضهم مادياً، ليتمكنوا من البقاء على انتمائهم ونصرة القضايا الإسلامية.

ومن المحفزات أيضًا مسؤولية الأمة والدولة عن الضعفاء والعجزة من المسلمين وغيرهم من أهل الذمة، وشاهد هذا من فعل عمر بن الخطاب؛ إذ وضع الجزية عن فقراء أهل الذمة، واقتدى به عمر بن عبد العزيز، فأرسل إلى ولاته: "وانظر مَنْ قِبَلَك من أهل الذمة قد كبرت سنُّهُ، وضعفت قوتُه، وولَّتْ عنه المكاسب، فأجْرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يُصلحُه، فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب، كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق، وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، فقال: "ما أنصفناك، أن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك." قال: ثم أجرِ عليه من بيت المال ما يصلحه والله ما أنصفناك إن أخذنا منك في شبابك وتركناك في هرمك."[1]

وفي مقابل المحفزات الفردية هناك المحفزات الجماعية التي تهدف إلى تحريك الجماعة نحو عمل ما. ويُعَدُّ ثواب صلاة الجماعة، والتزام العاقلة بالمشاركة في تحمل دية القتل الخطأ من المحفزات الجماعية. ومن المحفزات الجماعية التي عرفها الفقه الإسلامي الغنائم، والرضخ من الغنيمة لمن شارك ولم يكن مستحقًا للغنائم، حيث الأصل العام أن يشترك الجيش كله في أخذ

(1) ابن سلام، **الأموال**، مرجع سابق، ص57.

الغنائم، سواء من كان مشاركًا فعليًا أم من كان يقوم بدور الردء والنصير. وكذا إِذَا اجْتَمَعَ عَسْكَرُ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالْبَغْيِ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الْحَرْبِ فَغَنِمُوا غَنِيمَةً اشْتَرَكُوا فِيهَا، وهو معنى قول علي رضي الله عنه: لن نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ولِأَنَّ بَعْضَهُمْ رِدْءُ الْبَعْضِ."[1] وهذا محفز لتوحيد المواقف في وجه العدو الخارجي رغم الاختلاف في التوجه السياسي. وكذا يشترك المدد للجيش مع المباشرين عند الحنفية خلافًا للشافعية، وفي موقف الحنفية تحفيز لزيادة المشاركين، وفي هذا يقول السرخسي: "الرجل يكون حامية لقوم، وآخر لا يقدر على حمل السلاح، يشتركان في الغنيمة، لقوله r: إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم."[2] وكذا "وَمَنْ مَرِضَ أَوْ كَانَ جَرِيحًا فِي خَيْمَتِهِ حَتَّى أَصَابُوا الْغَنَائِمَ فَلَهُ السَّهْمُ كَامِلًا لِأَنَّ سَبَبَ الِاسْتِحْقَاقِ وُجِدَ فِي حَقِّهِ."[3]

وترى في هذا الحكم الفقهي تنبيهًا لأمر يتعلق بتوزيع المكافآت المادية، فمن شارك فعلاً يرى نفسه أكثر استحقاقًا من الردء والمدد والجريح، وفي تعليل الرسول ﷺ لمسوغ المساواة تصويب للنظرة المادية البتراء، فليست مساواتنا للضعفاء بأنفسنا انتقاصاً من حقوقنا المادية، بل إن استجلاب النصر والرزق إنما يكون دعوات الضعفاء، لأنهم لخلاء قلوبهم عن التعلق بالدنيا، وصفاء ضمائرهم، يكون دعاؤهم أقرب إلى ربهم.[4]

وفي الحديث توجيه لمعنى عميق وهو دور الإدارة والسياسات في حفظ روح الأخوة داخل الجماعة، بما لا يحرك نزعة الشح المستكنة في النفس الإنسانية. وهذا ما يدعو للبحث في الحوافز السياسية وبيان أثرها في تحقيق الانتماء.

---

(1) السرخسي، **المبسوط**، مرجع سابق ، ج10، ص135.

(2) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء، حديث رقم 2896، ص557.

(3) السرخسي، **المبسوط**، مرجع سابق، ج10، ص35، 46.

(4) المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي القاهري. **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1994، ج6، ص458.

3 – الحوافز السياسية للانتماء:

وتتمثل بمجموعة عناصر منها:

أ– الحكم الصالح، وله معايير منها (دستورية القانون واحترامه حقوق الإنسان)

تكشف دراسة السيرة النبوية عن أثر سياسة الحكم في تعزيز الانتماء؛ فحين تألَّف الرسول ﷺ قوماً ليسلموا، وخصَّهم بعطايا، فإنّ ذلك أثَّر في قلوب الأنصار وحدثتهم أنفسُهم بأنَّ الرسول ربما انحاز لقومه، وكان لسياسة النبي القائمة دورها في معالجة ذلك، وتمثلت هذه السياسة بتوضيح الأسباب، وبيان مسوغ ما حصل من تأليف قلوب بعض الناس ليسلموا، مع تعويض الأنصار بمحفز معنوي من الاعتراف بفضلهم، وكان لذلك أثره في تأليف القلوب، وتعزيز الانتماء.

وبالمقابل نجد القرآن يحدثنا عن سياسات تعمدت تمزيق المجتمع إلى شيع متناحرة كما في حال فرعون، وهي سياسة "فرِّقْ تسُدْ"، يلجأ إليها المستبد والمستعمر، ليتمكن من التحكم.

ويمكن القول بأن معايير الحكم الصالح التي تحفظ الانتماء للجماعة تقوم على العناصر التالية: معايير دستورية، ومعايير إدارية، فدستورية الحكم تعني تقييد الحاكم بدستور يتحرى حقوق الإنسان، وليس مجرد وجود قواعد تحت مسمى الدستور. ومن شأن دستورية الحكم أن تعطي الثقة للمواطنين بإمكانية الوصول إلى حقوقهم من خلال القانون، بالصورة التي تحقِّق الانتماء له. ولا بد أن تكون هذه القوانين مقيدة، للحكام ومبينة لحقوق المحكومين، بحيث يثق أفراد الجماعة بإمكانية أخذ حقوقهم بالقانون من غير حاجة للجوء إلى هويات فرعية لنصرتهم. وكل قاعدة تطلق يد المسؤول فهي قاعدة غير دستورية، ولو جاءت تحت اسم الدستور. إن تقييد الحاكم بالدستور يفعِّل الانتماء للجماعة، لما فيه من حماية لحقوق الأفراد، بحيث لا يحتاج الفرد للتزلف أو المحاباة لنيل حقه.

وينبغي تحرّي القانون ليكون في مصلحة الجميع؛ بمعنى أن لا يسن القانون لمصلحة جهة ما أو طائفة أو جماعة، ويُعدُّ هذا من أهم محفزات الولاء للأمة، أما إن شعر الفرد بعجز القانون عن حماية مصالحه، إلا باللجوء لطائفة أو ملة أو

عشيرة، فإن هذا السلوك يحفز الولاء للانتماءات الضيقة. ومآل هذا الأمر تفكك الولاء للجماعة وتهيئة الأجواء للتناحر والصراع. وقد حذر القرآن هذا المآل بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: 65] فالعذاب المشار إليه في الآية لا يقتصر على الزلازل والأعاصير، بل يمتد ليشمل القرارات الفوقية التي تصدر ممن يملك السلطة، ولكنها قرارات لا تتحرى مصلحة الأمة- بل تقصد إلى مصلحة طائفة، أو فئة، فتكون النتيجة، أن يتمرد أفراد المجتمع على السلطة جملة، وعلى القانون، ويتحول الولاء إلى هويات فرعية، وينقسم المجتمع إلى شيع متناحرة بسبب قرارات سياسية تذهب بروح الأخوة داخل المجتمع.

ب- إلغاء التشريعات التي تحول دون قدرة أفراد الجماعة على الترقي في انتماءاتهم للتشريعات في الدولة أثرها في الارتقاء بالولاءات الفرعية، إلى مستوى الأمة، وإخراج الأفراد من اهتمامات ذاتية إلى مستوى أرقى اجتماعيًا، وفتح الباب ليشارك مع أفراد الجماعة، وعدم الانغلاق على نفسه أو التحوصل على طائفته أو قرابته.

ونجد في دولة المدينة المنورة نموذجًا للدولة التي تفتح الباب لتعاون أفراد الجماعة، فوضع الرسول ﷺ الوثيقة النبوية المؤسسة، التي فتحت الباب للوحدات الاجتماعية للتلاقي والتعاون، وألغت من عادات العرب ما كان عائقًا من عوائق الترقي. فألغت الثأر الجاهلي، والتحالفات التي تكون على حساب العدالة، فقال لا حلف في الإسلام، والمقصود إذا كان في هذا الحلف -كما بيَّن الجصاص- "أَشْيَاءُ قَدْ حَظَرَهَا الْإِسْلَامُ، وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ يَشْرِطُ أَنْ يُحَامِيَ عَلَيْهِ فَيَنْصُرَهُ عَلَى الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ؛ وَقَدْ أَبْطَلَتْ الشَّرِيعَةُ هَذَا الْحِلْفَ وَأَوْجَبَتْ مَعُونَةَ الْمَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ حَتَّى يُتَنَصَّفَ مِنْهُ وَأَنْ لَا يُلْتَفَتَ إلَى قَرَابَةٍ وَلَا غَيْرِهَا."[1]

(1) الجصاص، **أحكام القرآن للجصاص**، مرجع سابق، ج4، ص380.

وأقر الإسلام التكافل السياسي وقرر سيادة الشرع، وهمينته على الولاءات الفرعية، ولهذا لا يحل لمن دخل في التزامات الوثيقة، إيواء محدث؛ أي مرتكب جريمة. والتشريعات التي سنها الرسول ﷺ كانت أدوات للترقية الحضارية، لأن الثأر والتحالفات الجاهلية ستجعل كل فرد يقف مع عشيرته وحليفه، على الحق والباطل، فإلغاء الثأر يساعد على تعاون أفراد العشائر على معاقبة الجاني، من غير إلغاء العشيرة، بوصفها وحدة اجتماعية لها أدوار إيجابية. وقد قرر ﷺ نبذ مبدأ التعصب والتكتل الأعمى، فلا يصح أن يتكتل أبناء العشيرة لنصرة ظالم وإقراره على ظلمه، وإنما نصرة أخيك الظالم هي منعه من الظلم، ومنع أذاه، كما فسر ذلك رسول الله ﷺ.[1]

ج- **حياد القضاء وعدم انحيازه** لقرابة أو غنى أو فقر، استجابة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135] والقسط هو العدل، والقرآن في هذه الآية يصوب مفهوما عربياً من التعصب للقريب، واعتبار ذلك هو معيار العدالة، لأنَّ العرف العربي كان يرى أن الحقوق لا امتداد لها خارج سلطان القبيلة. وقد أمر الله سبحانه أن لا نحابي غنيًا لغناه، ولا نخرم مبدأ العدالة إشفاقاً على فقير.[2]

ويلاحظ أنَّ الآية السابقة إذ نصت على إقامة العدل، حتى ولو كان أحد المتخاصمين هو الوالد أو القريب، فإنَّها تعمل على صهر القبائل جميعاً، ومنع التحوصل الذي يؤدي إلى أن ينغلق كلٌ على قبيلته، بل تسعى الآيات

---

(1) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب البر و الصلة و الآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلومًا. حديث رقم 2584) ص 1041. ولفظه: وَلْيَنْصُرِ الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيَنْهَهُ فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرٌ وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ.

(2) الرازي، فخر الدين. **تفسير الرازي أو مفاتيح الغيب**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج11، ص240. انظر أيضاً:
- الجصاص، **أحكام القرآن للجصاص**، مرجع سابق، ج3، ص272.

لفتح الباب واسعاً لاستثمار طاقات الأفراد في إطار الدولة المسلمة، ذلك أنَّ من أنماط الإدارة ما يسمى نمط الإدارة العصبية، فتجد مجموعةٌ من الناس تجمعَها رابطَ القرابة أو المذهب الطائفي فتسيطر على مواقع الإدارة، وتحرص على أن تحتكر هذه المواقع لأبناء عشيرتها أو طائفتها. وتتميز هذه المجموعات باعتقادها أنَّها هي الأعلم بمصالح الأمة، وأنَّها هي المؤتمنة على مصالح الأمة دون غيرها، فلا تعطي المجال لأفراد المجتمع للمشاركة في إدارة الدولة إلا من خلال خدمتها، وعليه لا يصل إلى مواقع الإدارة العليا إلا من يخدمهم، ولو لم يكن هو الأكفأ، وليس له من المؤهلات إلا أنه يُرضي مراكزَ القوى، ويشبع رغباتهم. ومن شأن هذا النمط من الإدارة أن يحرم الأمة من الكفاءات؛ ولذا جاءت هذه الآية الكريمة لتأمرنا بتحقيق العدالة مع الجميع، حتى ولو كان مخالفاً لنا في الدين، أو كان من أعدائنا، فإنَّ حياد القضاء وعدالة الإدارة يفتح الباب لمشاركة الطوائف والأعراق جميعها، في نهضة الدولة. وأما في حالة الإدارة القائمة على أساس العصبية أو الطائفية فإنَّها تؤدي إلى انغلاق سائر التجمعات في الدولة، كلٌ على طائفته وجماعته، وربما يتطور الوضع على نحو سلبي إلى انعزال فكري، ومادي، فتنحصر بعض الطوائف في الجبال بعيدة عن أفراد المجتمع، ويتكون لها بعد ذلك فكر خاص وتنغلق على نفسها، وكل ذلك مما تسعى الإدارة الحكيمة لتجاوزه، وسبيل ذلك العدل المطلق وحفظ حقوق الإنسان.

4 – محفزات إدارية للانتماء تتعلق بالتخطيط للمدن على نحو يحفز الولاء للأمة

ذكر الفقهاء في كتب السياسة الشرعية ما ينبغي مراعاته عند التخطيط للمدن، من ذلك أن يراعى بناء مسجدٍ جامع للصلوات في وسط الحي ليكون قريباً من جميع أهله، وتعُمّ شوارعُها بمساجدها وهذا من الواجبات على

منشئ الأمصار،[1] وذلك لحكم عدّة منها قيام "نِظَام الْأُلْفَةِ بين الْمُصَلِّينَ وَلِذا شُرِعَتْ الْمَسَاجِدُ في الْمَحَالِّ لِتَحْصِيلِ التَّعَاهُدِ بِاللِّقَاءِ في أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ بين الْجِيرَانِ."[2]

وتُعد العبادات في الإسلام إحدى أداوت الترقي العمراني ومحفزاته، لإخراج الإنسان من البادية ومن سلوك الأعرابية، أو تمدين البوادي وتمصيرها، وتحفيز التنمية والتمدن. ويتضح هذا بجلاء بدراسة الأحكام الفقهية لصلاة الجمعة؛ فهي لا تصح في البوادي والبراري عند الجمهور، وفي هذا دعوة للانتقال للمدن، إدراكاً لفضلها، أو لتمدين الصحارى وتنميتها لتصح الصلاة فيها. ولا تصح الصلاة بلا إمام؛ أي نظام سياسي مسلم عند الجمهور من الحنفية، والزيدية، والإمامية، والإباضية،[3] فضلاً عن النهي عن الانعزال في البادية، كما في الحديث "من بدا جفا."[4] ولعل الحكمة من ذلك أن يكون الفرد أقرب لمراكز التعليم، بما

---

(1) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (توفي 450هـ). **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك**، بيروت: دار النهضة العربية، 1981م، ص163.

(2) ابن نجيم، زين الدين إبراهيم (توفي970 ه). **البحر الرائق شرح كنز الدقائق**، بيروت: دار المعرفة، دت، ج1، ص367. ولعل مما يحتاج إلى نظر وضبط فقهي تنظيم بناء المساجد بحيث لا يخلو حي من مسجد جامع تقام فيه الجمعة، ولا يخلو شارع من مسجد يؤذن فيه وتقام الصلوات الخمس. ولا تكثر المساجد الجامعة في الحي الواحد على نحو يعطلها عن غايتها أو يؤدي إلى تفويت مصالح أخرى. وينبغي ضبط كل ذلك بميزان المصالح الشرعية المعتبرة.

(3) ابن الهمام، كمال الدين محمد. **شرح فتح القدير**، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003م، ج2، ص55. انظر كذلك:

- الصنعاني، أحمد بن قاسم العنسي. **التاج المذهب لأحكام المذهب شرح متن الأزهار في فقه الأئمة الأطهار**، صنعاء: دار الحكمة اليمانية، 1993م، ج1، ص136.
- العاملي، زين الدين (توفي:965هـ). **الروضة البهية شرح اللمعة الدمشقية**، بيروت: دار العالم الإسلامي، (د.ت.)، ج1، ص300.
- اطفيش، محمد بن يوسف العدوي. **شرح النيل وشفاء العليل**، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، 1987، ج 2، ص324.

(4) ابن حنبل، أحمد. **مسند الإمام أحمد**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1999، حديث رقم 8836، ج14، ص430.

يساعد على ترقيته، فضلاً عن الإفادة من جهده للصالح العام.

والمصر عند الحنفية "هُوَ كُلُّ مَوْضِعٍ لَهُ أَمِيرٌ وَقَاضٍ يُنَفِّذُ الْأَحْكَامَ وَيُقِيمُ الْحُدُودَ... وَيُشْتَرَطُ الْمُفْتِي إذَا لَمْ يَكُنْ الْقَاضِي أَوْ الْوَالِي مُفْتِيًا."[1] ويكشف لنا هذا النص عن تنظيم المدن على نحو يوجه التثاقف الحضاري. فالمجتمعات في بداية تكوينها تمر في مرحلة انتقال وإعادة تشكيل، وتحاول اجتياز حالة قديمة والدخول في حالة جديدة. ويشرف على هذا الانتقال الحضاري ويوجهه مؤسسة فكرية ممثلة بالمسجد والمفتي، الحافظ لقيم التحضر الحقيقي، ولمعاني العمران، ويحمي من الانكفاء نحو المصالح الفردية، كما في حال "الأعرابي" الذي يتخذ ما ينفق مغرمًا، ويتربص بالمؤمنين الدوائر. كما يحمي من الذوبان الفكري أمام الأفكار الوافدة والانسلاخ الحضاري، وهذا ما حذر منه القرآن الكريم، في قوله سبحانه: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: 175] فوجود المفتي أو القاضي المفتي له أثر واعتبار في توجيه الأفكار لتبقى منسجمة مع الرؤية الإسلامية الكلية، فيما يتعلق بالهوية والانتماء للأمة.

فلم يكن دور المفتي والمسجد مقتصراً على إخراج الإنسان الفرد من حالة البداوة وسلوكها إلى حالة الإنسان المنتمي، الذي يجاهد إذا دعي، بل كان للمسجد والمفتي دور كذلك في مواجهة الأفكار الثقافية القادمة من الأمم الأخرى واستيعابها بعد تهذيبها في النظرية الإسلامية. وإذا كان للمسجد هذا الدور في الماضي فهل نحن بحاجة إلى مؤسسات موازية في ظل المدن الحديثة؟ أو هل نحن بحاجة إلى تأهيل جديد للأئمة والمفتين، ليتمكنوا من توجيه الأفكار في ظل العولمة وما يثار من أسئلة الحرية والتنمية والبطالة؟ وقد تكون كلفة تأهيل المتصدين للفتيا لأسباب العمران وتحسين نظام الخطابة والإمامة مرتفعة، إلا أن كلفة استمرار الجهل بأسباب العمران لا حد لها.

---

(1) ابن نجيم، **البحر الرائق شرح كنز الدقائق**، مرجع سابق، ج2، ص151.

5 – محفزات اجتماعية للانتماء والولاء

ويقصد بها المحفزات التي تركز على العمل الجماعي وتقوم على التعاون بين العاملين، وتتمثل بمجموعة عوامل منها:

أ– إحياء مؤسسات الوحدة الحضارية والفكرية والاقتصادية، والتمكين الفعلي لها، وفق ما عرفت الحضارة الإسلامية، حيث كان للطرق الصوفية والمؤسسات التعليمية كالأزهر، والزيتونة وغيرها، إضافة إلى نقابات أصحاب الحرف، دور بارز في الإبقاء على الوحدة الحضارية للأمة. ومن الملاحظ أن هذه الوحدة في أيامنا هذه قد تعرضت للاهتزاز، وأن المؤسسات أفرغت من قدرتها، حتى أصبحت عاجزة عن توفير خدمات حقيقة للأفراد، وهذا أدى إلى لجوء الأفراد إلى الانتماءات التقليدية. ولتجاوز هذه الحالة ينبغي إيجاد مؤسسات تعيد بعث فكر الوحدة وإحياءها. ويقترح الدارسون إيجاد نقابات على مستوى دول الأمة المسلمة، فضلاً عن تفعيل دور المؤسسات التعليمية الوحدوي.

ب– ترسيخ دعائم المجتمع القوي الذي يستطيع تحقيق التوازن بين السلطة والشعب، ويعبر عن هذا المفهوم بالمجتمع المدني أو (مؤسسة الأمة)، بحيث يستطيع هذا المجتمع القوي المؤمن بالوحدة الحضارية أن يوجه الكيانات السياسية نحو التقدم للوحدة السياسية، وصولاً إلى الأمة الواحدة والدولة الواحدة. وقد اختلف الباحثون في مدلول هذا المفهوم، فيرى الباحثون الغربيون: أن قيام "المجتمع المدني" يستلزم وجود مؤسسات اقتصادية رأسمالية، وخصخصة القطاع العام، أمّا الباحثون العرب فيرون أن القضية ليست في كون المجتمع مدنيًا أو غير مدني، وإنما هي في مجتمع قوي متماسك، يستطيع تحقيق التوازن مع السلطة الحاكمة، ويفضل بعض الدارسين استخدام مصطلح "مؤسسة الأمة" بوصفه أقرب لطبيعة المجتمع الإسلامي، وهذا ما يحتاجه المجتمع العربي لتجاوز حالة الاستبداد في الحكم.[1] ومن أهم دعائم المجتمع القوي أو "مؤسسة الأمة"

(1) عبد الخالق، نيفين. الأبعاد السياسية لمفهوم التعددية، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد 77، 1995، ص104.

تلاقي الشعوب والقبائل وانصهارها في إطار المفهوم الواسع للأمة، وامتلاك الأمة لمؤسسات فكرية مستقلة عن الدولة، تملك حرية التعبير والنصح والفتيا، من غير حاجة إلى ترخيص من الدولة، لأنَّ ربط صلاحية المؤسسات الفكرية بموافقة الدولة يعني أن تتجاوز الدولة الدور الطبيعي لها وتتعدى على دور الأمة.

ومن المهام التي ينبغي أن تقوم بها مؤسسات الأمة الدور الأخلاقي في بث قيم حل الخلاف بين أفراد الجماعة بأسلوب حضاري، فضلاً عن حاجة الأفراد لهذه المؤسسات للدفاع عن مصالحهم وحاجتهم للسلطة السياسية، وقدرة هذه المؤسسات على حشد الأفراد مع التزامها بحل الخلاف، وفق قواعد إدارة الصراع على نحو علمي، يحول دون قيام السلطة السياسية بإدارة شؤون الدولة معتمدة على أدوات العنف المادي وحق القسر، بل لا بد من توظيف الوسائل الفكرية "الإيديولوجية"، والإقناع والرضا الشعبي، لتحصيل الشرعية من الرأي العام، وضمان سيادة القواعد المتحضرة لتنظيم الاجتماع الإنساني.

ومن هنا ينشأ مفهوم مدني للسياسة، قوامه أن السياسة مجال عام، لا ملكية خاصة لفريق دون سواه، وعليه ينحصر مفهوم الاستيلاء على السلطة، ويظهر مفهوم آخر هو توزيع السلطة وتقاسمها بين الجماعات المختلفة الممثلة للرأي العام.

خاتمة

إن الانتماء إلى أسرة أو إلى جماعة حاجةٌ أساسية للإنسان، وقد ارتقى الإسلام بمفهوم الانتماء فجعل الانتماء إلى الأمة الإسلامية التي تستوعب في داخلها كل أشكال الترابط الاجتماعي التي عرفتها الإنسانية؛ جعله أرقى أنواع الانتماء الذي يؤدي إلى سلوك عمراني كفيل بزيادة الثروة القومية أو الإنسانية. ولكي يصل الانتماء إلى الغاية التي رسمها المجتمع أو الأمة، كان لا بد من حوافز هي بمثابة المثيرات الخارجية، المحركة للقوى الداخلية في الإنسان نحو العمل السياسي، أو الإداري العمراني، أو المحفزات الاجتماعية، التي تركز على العمل الجماعي.